بقلم: أبراهام بورغ *

إسرائيل والمجموعات اليهوديّة في دول العالم- مسارات النقاش

توطئة

إن الانشغال أو البحث في منظومة العلاقات بين إسرائيل ومهاجر الشعب اليهودي هو النقيض لـ«الواقع القديم»، إذ إن الشعب اليهودي، وخلافا لما ورد في مقدمة «وثيقة الاستقلال»، لم يبعث في أرض إسرائيل. ففي غير مرة يمكن أن يبدو للناظر من الخارج بأن المهاجر هي الوطن وأن أرض إسرائيل هي المرسى الذي يعرّج عليه الشعب اليهودي مرارا بغية شحن مستودعاته ومن ثم مواصلة الطريق والمضي قدما في دروب الاندماج الثنائية بين العالمية والانعزال.

يمكن للنقاش في هذا الموضوع أن يجري على امتداد عدة محاور ناظمة هي الجغرافي والإثني أو السياسي. ولا تؤدي كل الطرق – الكرونولوجية (الأحداث حسب تسلسلها الزمني) والجوهرية المتعلقة بموضوع البحث ذاته، والدينية – إلى نفس الأماكن، وأحيانا تختلط وتتداخل الأمور بصورة تامة. وعلى سبيل المثال، فقد قاد المسار الإثني، الديني والجغرافي، معظم يهود البلدان الإسلامية إلى دولة إسرائيل في حين انقسم اليهود الإشكناز – الذين تعود أصولهم إلى البلدان المسيحية – بين التجمع السيادي في إسرائيل وبين باقي بلدان ودول الغرب. وعلى الرغم من أن الغالبية الساحقة من مؤسسي وبناة دولة إسرائيل، لا ينتمون من ناحية كرونولوجية، لطوائف الإشكناز، إلّا أن الفكرة الصهيونية كانت فكرة الأقلية لدى اليهود الإشكناز.

في هذا المقال اخترت محاولة إضاءة الواقع المرصوص والشائك لعلاقات إسرائيل والشتات من عدة زوايا في عدد من المسارات المذكورة أعلاه في آن واحد.

* ابراهام بورغ– سياسي إسرائيلي شغل منصب رئيس الكنيست ورئيس الوكالة اليهودية، إلى جانب كونه كاتبا.

تفوق المنفى

اكتشف أبانا الأول، ابراهيم، الله الواحد خارج حدود أرض إسرائيل، وقد حُوّل اسم الأب الثالث، يعقوب، ليصبح يسرائيل بينما كان عائدا من منفى دام فترة طويلة، وتحولت الأسباط إلى شعب ... في مصر نزلت التوراة في طور سيناء، خارج حدود «أرض إسرائيل»، وفي بلاد ما بين النهرين (العراق) جُمِعَ التلمود البابلي الذي يضاهي في أهميته التلمود الأورشليمي. كذلك الحال أيضا بالنسبة للكثير من الحركات والأفكار والشخصيات التي شَكلت وكَوَّنت الشعب اليهودي في سائر مراحل وفترات وجودة.

إن من المشكوك فيه أن تكون ما نسبته ٨٪ من مجمل سنوات وجود الحضارة اليهودية قد تشكلت وقامت هنا في ارض إسرائيل، في ظل سيادة واستقلال اليهود. فكل ما تبقى كان أشكالا مختلفة من العبودية والمنافي والشتات. حتى الفكرة الصهيونية، وهي الفكرة السياسية الأهم منذ زوال الاستقلال اليهودي في العام ٧٠ للميلاد، لم تنجح في اجتذاب الشعب اليهودي كله، بل على العكس، فغالبية الشعب اليهودي ، لم تتماه، بعدما اتضحت النتائج الفظيعة للحرب العالمية الثانية، مع الحل السياسي الذي اقترحه هرتسل ورفاقه، وقد ظلت الصهيونية حتى منتصف القرن العشرين، حركة أقلية. فضلا عن ذلك، فقد قضت المحرقة النازية على معظم اليهود غير الصهيونيين، وغيرت وجهة النظر الأيديولوجية لمعارضي الصهيونية. كما أدت من نواح عديدة، إلى إعادة تشكيل الفكرة الصهيونية بصورة مختلفة تماما عن حلم أصحاب الفكرة وروادها. وبسبب المحرقة كفت إسرائيل عن كونها البلد المفضل لليهود، والمجتمع النموذجي لكل أسرة، وحلاً ايجابيا وتقدميا للاغتراب اليهودي بين شعوب الغرب. وانما تحولت إسرائيل إلى دولة مأوى منكوبة للاجئين يهود، تحركها الصدمة والشك والارتياب الذي أخذ يزداد أكثر فأكثر تجاه العالم. ولم تتوقف الأمور عند حد العام ١٩٤٨ ، فهذه العملية التي أضحت فيها إسرائيل دولة مأوى، استمرت حتى ذروة تسعينيات القرن الماضي. وفي اللحظة التي اصبح فيها الأمر ممكنا بذلت إسرائيل قصارى الجهد من أجل استيعاب عشرات آلاف اليهود الأثيوبيين، حين لم يكن متاحاً لهم أي بديل آخر عدا إسرائيل. وفي تلك السنوات ذاتها أيضا، أُسدل الستار نهائيا على تواجد الجالية اليهودية في جنوب افريقيا، غير أن هؤلاء (يهود جنوب افريقيا) الذين نعموا بسنوات من الرفاهية والتربية اليهودية والصهيونية، امتلكوا القدرة على الاختيار، وقد فعلوا ذلك، إذ اختارت أغلبيتهم الهجرة إلى استراليا وكندا وبريطانيا، وهي البلدان المفضلة لدى اليهودي العصري في مقابل دولة المأوى للاجئين والشتات اليهوديين.

"الشعائر الدينية ساعدت اليهود في المحافظة على التميز والانعزال".

ويجدر بنا أن نناقش في مكان آخر، الصراع الشديد، الذي دار – خلف وأمام الكواليس – مع منظمات يهودية غير صهيونية في العالم حول توجيه وجهة هجرة يهود الاتحاد السوفياتي، قبل وبعد انهياره. في سبعينيات وتسعينيات القرن الماضي، لم يكن قادة إسرائيل قادرون على تقبل فكرة إعطاء حرية الاختيار لليهود الصامتين فيما يتعلق بمصيرهم. فقد تخوف هؤلاء القادة من أن يفضل أولئك اليهود المهجر الغربي المريح على إسرائيل الفظة والمتشددة، وفعلوا كل ما في وسعهم، على الصعيدين السياسي والشعبي، بغية حمل أكبر عدد ممكن من اليهود على القدوم في نهاية المطاف إلى إسرائيل وليس إلى دول الغرب.

اليهودي وغير اليهودي

أدت آلاف السنوات من حياة التشتت، إلى تطوير نماذج مختلفة في الثقافة اليهودية، من العلاقات مع المحيط غير اليهودي، يتسم الكثير منها بالشك والارتياب وحتى الهوس، ليس فقط في الممارسة اليومية، وانما أيضا في الثيولوجيا والتفكير والفروض الدينية.

وعلى سبيل المثال، ودون الخوض في تفسيرات المقولات الوعظية، يمكن لنا الاكتفاء هنا بالقول أنه وبناء على الواقع الديني المعياري (الهلاخاه – الشريعة اليهودية) فقد جعلوا من اليهودي أيا كان كارها ليعقوب.[١] هناك تعبير مُحّددُ آخر ورد في الآية التوراتية: «هو ذا شعب يسكن وحدة. وبين الشعوب لا يُحسب» [٢]) ويمكن تفسير هذا التحديد بأنه يصف الشعب اليهودي بطريقة مهينة وسلبية، وبطريقة إيجابية أيضا. غير أن كلا التفسيرين يقبلان كفرضية أساسية الاختلاف البنيوي والانعزال والانفصال القائم بين الشعب اليهودي وبين سائر أمم وشعوب العالم.

«لقد جرى تقديس السلبية السياسية (بمعنى العزوف عن الفعل والمبادرة)، كما هو معروف، كفريضة دينية. فقد أمر الله، كما يقال، اليهود بحلف عدة أيمان عند خروجهم للمنفى، أولها ألا يشيدوا ويرفعوا الأسوار حول إسرائيل (أي أنه حظر عليهم تجديد الاستيطان والسيادة القوميين في أرض إسرائيل) وقسم ثان.. بألا يتمردوا ضد أمم العالم»

المنفى كعقوبة

صوّر أنبياء التوارة، منذ موسى ومن تلاه، المنفى كعقوبة إلهية على مسلكيات اجتماعية وإيمانية وسياسية غير ملائمة في الأراضي المقدسة. ومن نواح وجودية – روحية كثيرة، يعتبر الوجود القومي في أرض إسرائيل، وجودا مع وقف التنفيذ، ليس فقط فيما يتعلق بأبناء إسرائيل – اليهود – وإنما أيضا بالنسبة لكل ساكن أو مقيم. فالبلد له أيضا حياة ورغبات خاصة به ولذلك لا يمكن له تحمل مسلكيات وممارسات غير ملائمة. وحين تحدث سلوكيات كهذه، يُصاب البلد بالغثيان ويلفظ قاطنية: «فلا تقذفكم الأرض بتنجيسكم إياها كما قذفت الشعوب التي قبلكم»[٣].

ومن هنا فإن البديل للوجود القطري هو المهجر أو المنفى، وهو ما يتحقق في نهاية المطاف، ليس لمرة واحدة ولا مرتين. في المرة الأخيرة حدث ذلك في القرن الثاني للميلاد. ففي نهاية حقبة سياسية عاصفة، تخللتها أعمال تمرد وسفك دماء وجملة من الأخطاء السياسية والاجتماعية، احتل الرومان القدس، ودمروا الكيان السياسي اليهودي وسبوا وأَجلوا بوحشية أعداداً كبيرة من اليهود إلى أسواق العبيد في روما.

وهنا لا بد من تكريس اهتمام معين للفهم الإيماني – التاريخي للشعب اليهودي، والذي ينبع بصورة مباشرة من الجينات الوراثية (دي. إن. إي) القيمية التي تسم علاقة البلد بقاطنية والسلوك المعياري المتوقع منهم.

في أعقاب خراب الهيكل، وبالأخص بعد المحو الفعلي للكيان السياسي اليهودي الثاني، أضحى المنفى على اختلاف شتاته، مهما للغاية. ويُعتبر الرومان المسؤولين التاريخيين عن خراب الهيكل والخراب السياسي، إذ قمعوا بقبضة حديدية أعمال التمرد في سائر أنحاء الأمبراطورية الرومانية. غير أن الوعي اليهودي الإيماني والشعائري شطب الرومان كليا من قائمة المسؤولين. ففي الصلوات القديمة لليهود، والتي ما زالت تُتلى حتى الآن على ألسنة المصلين، ثمة جهة واحدة فقط تتحمل عبْ المسؤولية، وهي «نحن»! «بسبب خطايانا أُجلينا عن بلدنا»[٤]. ما هي الخطيئة، هذا الأمر غير واضح، إذ لم يجر قط نقاش معمق للسؤال:

ماهي البدائل التي كانت متاحة لذاك الوضع الجيوسياسي؟

كان هناك استنتاج قاطع واحد: نحن المخطئون، نحن المسؤولون. ذاكرتنا الجماعية لا تُحمل الرومان المسؤولية عن الكارثة القومية، وإنما تكرس في الصلوات المسؤولية الذاتية اليهودية عن الأعمال التي أدت إلى النتيجة المأساوية.

من هنا فإن المنفى السياسي هو إذًا عقوبة على مسلكيات سياسية غير سليمة.

المنفى المريح

المنفى كعقوبة هو فقط أحد الأبعاد للحياة خارج الوطن الميثولوجي المنشود. ففي تلك العهود الغابرة كان هناك أيضا منفى طوعي. وقد فضل الباحثون عن سكن مريح وفرص للرزق والعمل والراحة، البقاء طوعا في المهجر البعيد على التقوقع – إذا أتيحت الإمكانية – في المركز «الأرض إسرائيلي». هذا التوتر، أو التضارب، بين المركز السياسي، الذي اتسم أحيانا بالضعف والشدة، وبين الشتات الكوني المريح، وبالجسامة والمشقة أيضا في غير مرة، أقحم الله في «ساحة المعركة». وهناك مقولتان متناقضتان للحكماء (اليهود) تعكسان أيديولوجيتين متطرفتين ومتناقضتين . فمن جهة « كل من يسكن خارج البلاد يشبه من لا إله له». [٥]

الأمور واضحة: ليس فقط من يتخلى عن أرض إسرائيل يعتبر كإنسان لا إله له، بل إن الله ذاته – ضمنا – لا يتخلى عن المكان الذي اختاره لعرشه– أرض إسرائيل. من جهة أخرى، هناك رؤية مختلفة تماما مفادها أنه «حيثما يُهاجر أبناء إسرائيل تهاجر معهم الرعاية الربّانية»..[٦] وفقا لوجهة النظر الأولى، فإن الله ، خالق الكون، هو عنصر أو ركن محلي ملزم، بينما وفقاً للمفهوم الثاني،

«لم تكن العودة العلمانية إلى الوطن القديم مجرد استيطان كولونيالي وحسب، مثلما فعلت القوى الغربية في القرون السابقة، بل انطوت على شحنة إيمانية قديمة بـ «يوم القيامة»، انتظرت فرصة للانفجار. وقد كتب غرشوم شولام – وهو باحث بارز في شؤون «الكبلاه» الصوفية الدينية اليهودية – في عشرينيات القرن الماضي إن «الله لن يبقى صامتا في اللغة التي حلّفوه بها آلاف المرات بالعودة مجدداً إلى حياتنا»

فإن الله هو عنصر إيماني قابل للانتقال، ولذلك فإن من لا يختار التخلي عن مكان سكنه في أرجاء العالم، يبقى الله معه أيضا في سائر أنحاء العالم. فيما بعد، كرس الحاخام موشيه بن ميمون، كبير علماء العصور الوسطى، فصلاً كاملاً من المصادر التلمودية، لهذا الموضوع، مع مقولة معيارية ضد السكن خارج البلاد. مع ذلك، فإنه يتيح سلسلة من الاستثناءات والتحفظات الاقتصادية والسياسية التي تسمح بالوجود والحياة في الشتات، ويجمل مع ما يدعى اليوم بصفقة قيمية تمنع وتسمح في آن واحد: «مثلما يُحظر مغادرة البلاد إلى الخارج، فإن من المحظور أيضاً مغادرة بابل والخروج منها إلى باقي البلدان..». [٧]

وهكذا استمر الشعب اليهودي في وضع التراكم المنفوي. وعلى الرغم من أنه أتيحت، على مر آلاف السنوات، فرص كثيرة، كان يمكن لليهود فيها كأفراد، وربما حتى كجماعة، العودة إلى الوطن، إلاّ أنهم لم يفعلوا ذلك. لقد ذاب الشعب اليهودي كليا داخل واقعه الجديد، واقعا من الثنائية البنيوية، فاندمج وحافظ في الوقت ذاته على تميزه وانعزاله. وثمّة مقولة تُنسب إلى هاينرخ هاينة يقول فيها:» أن الشعب اليهودي اتخذ لنفسه وطنا مُتنقِّلاً.» تحولت الطاليت (شال – دثار– الصلاة لدى اليهود) وال «تفِلّين» (شريطان من الجلد يشد أحدهما حول الرأس والثاني حول اليد اليسرى في صلاة الفجر ويحمل كل منهما علبة صغيرة كتب عليها أربعة فصول من التوراة، وهي أساس الصلوات اليهودية في توحيد الله– المترجم)، وكتاب الصلوات اليومي والطقس التعليمي، إلى حيزات الوجود غير السيادية وغير الإقليمية للشعب اليهودي.

المنفى والسلبية السياسيّة

لقد جرى تقديس السلبية السياسية (بمعنى العزوف عن الفعل والمبادرة)، كما هو معروف، كفريضة دينية. فقد أمر الله، كما يقال، اليهود بحلف عدة أيمان عند خروجهم للمنفى، أولها ألا يشيدوا ويرفعوا الأسوار حول إسرائيل (أي أنه حظر عليهم تجديد الاستيطان والسيادة القوميين في أرض إسرائيل) وقسم ثان.. بألا يتمردوا ضد أمم العالم. [٨]

بفعل هذه الأيمان وضعت المجموعة اليهودية المشتتة نفسها في حالة وعي انتظارية لـ «الخلاص التام». أو بعبارة أخرى أشبه بلعبة حاصل النتيجة صفر. فمن جهة، انتظار حقيقي تماماً، وعديم الصبر تقريباً، لقدوم المسيح، ولكن من جهة أخرى، ينبغي للخلاص أن يكون خلاصاً تاما وكاملاً. والمسيح الحقيقي هو الذي سيجلب معه الخلاص التام والمطلق، ولذلك فقد قوبلت كل فرصة لخلاص جزئي، أتيحت للشعب اليهودي، بالتجاهل التام. وقد ظهر على مر الأجيال عدد من المنقذين الكاذبين الذين لعبوا على هذه الأوتار، وألهبوا حماس الجماهير، وخلقوا توقعات كاذبة، وتسببوا باثارة أزمات روحية وشخصية فظيعة.

غير أن العبر والدروس التي استخلصت من الأحداث التراجيدية للتوتر الخلاصي المسياني، بقيت كلها في القطب السلبي. وقد نشبت صراعات شديدة، طائفية وثيولوجية ضد المسيانية وأضرارها، وضد تنمية أحلام بعيدة حول الخلاص في أيام القيامة. كذلك نمت سياسة تقوم على تقبل سوء الأقدار وتبريرها من ناحية ثيولوجية ووجودية، والترحال الدائم من مكان سيء إلى مكان أقل سوءاً. ولكن على الرغم من كل ذلك، لم تقم ولم تنبثق حتى العصر الحديث، زعامة فعالة.

المنفى القومي يحل مكان المنفى الديني

مع ولوج الشعب اليهودي للعصر الحديث، وخاصة في الغرب المسيحي المتحول إلى العلمانية، انحسرت إلى حد كبير أهمية المكون الديني كعنصر حيوي في الهوية اليهودية. غير أن ضعف

«لقد اتضح فيما بعد أن الصهيونية كانت بمثابة السّقالة الفكرية الحيوية لنقل الشعب اليهودي من بنية نظام منفوي لشعب مشتت إلى بنية نظام سيادي وتمركز ديمغرافي. بعد نجاح الصهيونية بالنسبة لليهود (ولا يتناول هذا المقال أثمان وانعكاسات النجاح الصهيوني على المأساة الفلسطينية) انتقل بالفعل نحو نصف الشعب اليهودي إلى البنية النظامية الجديدة. غير أن إقامة إسرائيل خلقت ديناميكية ديالكتيكية وعاملا محفزا ساهم أيضا في تسريع المحددات الجديدة للنظام المنفوي اليهودي»

المكون الديني في بيئة الوجود لليهود أتاح بالذات أيضا خفض حدة التوتر الديني، الإيماني، المسياني والخلاصي المطلق، في البيئة اليهودية الداخلية. فقد دخلت إلى حياة اليهودي عوامل العصرية والحداثة والتنور وكذلك التفكير النقدي والروح العملية والقدرة على تقبل التسويات والإنجازات الجزئية. وقد حلت مكان فكرة الخلاص التام، الفكرة الصهيونية حول الخلاص التدريجي «رويدا رويداً»، [٩] «دونم أرض هنا وآخر هناك، حفنة تراب تلو أخرى».[١٠]

ونظراً لأسباب وظروف الصّد والإقصاء (تنامي اللاسامية والفكرة القومية، وتطوير الدولة والدولة القومية)والجذب («الأمل سنوات الألفين») [١١] أضحت الصهيونية فكرة ممكنة، مرتبطة بشكل وثيق بالديناميكيات السريعة للقرون السابقة ومن ضمنها: إشراع أبواب الشرق الأوسط أمام الغرب، والزحف الكولونيالي للقوى العظمى في تلك الفترة نحو الشرق جنبا إلى جنب مع التوجه السياسي والدبلوماسي المسيحي – التاناخي الذي اتبعته الدول المهمة في أوروبا. وقد أضحت الصهيونية عمليا حركة للتجسيد والانبعاث القومي التي أخلّت دفعة واحدة ، سواء بالأيمان الدينية المذكورة أو بـ «مأزق الخلاص التام» لدى اليهودية الإيمانية (الدينية). وهكذا أمست الصهيونية حركة الخلاص الجزئي، المرحلية، للشعب اليهودي في العصر الحديث.

لم تكن العودة العلمانية إلى الوطن القديم مجرد استيطان كولونيالي وحسب، مثلما فعلت القوى الغربية في القرون السابقة، بل انطوت على شحنة إيمانية قديمة بـ «يوم القيامة»، انتظرت فرصة للانفجار. وقد كتب غرشوم شولام – وهو باحث بارز في شؤون «الكبلاه» الصوفية الدينية اليهودية – في عشرينيات القرن الماضي إن «الله لن يبقى صامتا في اللغة التي حلّفوه بها آلاف المرات بالعودة مجدداً إلى حياتنا» [١٢]

لقد كانت الصهيونية بمثابة ثورة لـ... العودة، إذ أعادت قسما كبيراً من الشعب اليهودي إلى أقاليم وبقاع قديمة، وإلى الحكم الذاتي والسيادة. وقد فعلت ذلك بواسطة أدوات ووسائل عصرية (قرارات منظمات دولية، والقانون الدولي، ونظام دولاني عصري، وغير ذلك) غير أن المنطلق الفكري كان بالأساس منطلقا تاريخيا قديماً. لذلك لم يقم الصهيونيون قط بشراء أراض، وانما عملوا على «إنقاذ» وتهويد الأرض. كما أنهم لم يعيدوا تشكيل وبناء الإنسان العصري وانما عملوا من أجل «خلاص» الإنسان وخلاص الشعب. كذلك ثمة بينهم أيضاً من تحدث عن خلاص العالم عن طريق خلاص وانعتاق الشعب اليهودي. هذه الكلمات والعبارات المتعلقة بالخلاص، والتي شقت طريقها من خلال متمردين يهود ثاروا ضد «اليهودية الأم» وطابعها الديني، لم تبق – كما تنبأ شولام – صمّاء. فقد انفجرت في هذه الأيام تلك الشحنات العاطفية العميقة المرتبطة بتوق المنفى للخلاص، بكامل قوتها وعنفوانها. وقد تحولت كلمات الخلاص، وصهيون الصهيونية، والهيكل المقدس والشعب المختار، وكل ما إلى ذلك، بصورة شبه طبيعية وأتوماتيكية تقريباً، لتصبح السمات والمحدّدات ليهودية إسرائيل في القرن الحادي والعشرين.

التحوّل من المنفى إلى السيادة: نظامان يهوديان

لقد اتضح فيما بعد أن الصهيونية كانت بمثابة السّقالة الفكرية الحيوية لنقل الشعب اليهودي من بنية نظام منفوي لشعب مشتت إلى بنية نظام سيادي وتمركز ديمغرافي. بعد نجاح الصهيونية بالنسبة لليهود (ولا يتناول هذا المقال أثمان وانعكاسات النجاح الصهيوني على المأساة الفلسطينية) انتقل بالفعل نحو نصف الشعب اليهودي إلى البنية النظامية الجديدة. غير أن إقامة إسرائيل خلقت ديناميكية ديالكتيكية وعاملا محفزا ساهم أيضا في تسريع المحددات الجديدة للنظام المنفوي اليهودي. كذلك فقد

"الوعي الغيتوي صار قبليًا في إسرائيل".

ساهم الجهد اليهودي لإقامة دولة قومية لليهود، في دفع الكثيرين – أفراداً ومجموعات وحركات ومؤسسات ومنظمات – نحو اتباع سلوك مهجري مختلف وبفضل الجهد اليهودي الدولي تبلور أيضاً الشتات المتجدد، وأصبح منظما ومشاركاً في عمليات سياسية شديدة التأثير لصالح هذا الشتات ذاته، ولصالح إسرائيل وكل يهودي أينما كان.

لقد أدت الضربة الجسيمة الناجمة عن المحرقة التي تعرض لها اليهود في أوروبا، والتصفية شبه التامة لليهودية في البلدان الإسلامية، والتي هاجرت إلى إسرائيل والغرب، إلى إبقاء عمودين في الساحة اليهودية، الإسرائيلي والأميركي. وقد كانت العلاقات والروابط بينهما في فترات معينة روابط تكافلية تقريبا، إذ لم تكن إسرائيل لتبقى بدون السند الاستراتيجي، السياسي والمالي للجالية اليهودية في الولايات المتحدة، كما لم تكن الجالية اليهودية – المنظمة – في الولايات المتحدة لتصمد من دون إسرائيل كمادة لاصقة ربطت بين كل مكونات اليهودية الأميركية. في السنوات الأخيرة اعترى هذه الروابط شيئ من الضعف. وقد نشر البروفسور بيتر بينارت مقالاً مهماً حول هذا الشأن في «نيويورك بوك ريفيو ، عنوانه The Failure of American Jewish Establishment.[١٣] في هذا المقال شرع المؤلف في مهمة مسح الفجوة المتسعة بين الجيل اليهودي الشاب في الولايات المتحدة، وبين نظيره الإسرائيلي. وبحسب إدعاء بينارت فإن الأسس القيمية المختلفة التي يتربى عليها هذان الجناحان في الشعب اليهودي، تتسبب بتباعد حقيقي. فالمنظومة القيمية الأميركية التي أرست دستورا ومساواة وحرية واستقامة مدنية، غير متوفرة في إسرائيل، لا تجاه المكون المدني غير اليهودي، ولا تجاه يهود لا تنطبق عليهم المحدّدات والمعايير الصارمة للمؤسسات الحاخامية (الدينية) ومفاهيمها ورؤيتها الأرثوذكسية. نتيجة لذلك أخذ الجيل الشاب من يهود أميركا يفقد الاهتمام والحماس تجاه إسرائيل، اللذين ميزا إلى حد كبير الأجيال (اليهودية الأميركية) الثلاثة السابقة لهذا الجيل.

«إن النظرة الصهيونية للمنفى ليست أحادية من الناحية القيميّة كما أنها لا تتسم بالجزم. على العكس من ذلك، فقد أعلنت الحركة الصهيونية وزعماؤها منذ البداية، حرباً خطابية ضد المنفى، وأنكروا باسم «نفي المنفى»، شرعية أي وجود يهودي غير إسرائيلي، ورفضوا كل الجوانب والأبعاد الجوهرية والثقافية للشتات اليهودي، وناضلوا بتعصب من أجل اللغة العبرية، وأنهوا عمليا اللغتين اللادينو (لغة يهود اسبانيا والبرتغال) واليديش، كلغتين حيتين ومنتشرتين»

نفي المنفى، ونفي «نفي المنفى»

إن النظرة الصهيونية للمنفى ليست أحادية من الناحية القيميّة كما أنها لا تتسم بالجزم. على العكس من ذلك، فقد أعلنت الحركة الصهيونية وزعماؤها منذ البداية، حرباً خطابية ضد المنفى، وأنكروا باسم «نفي المنفى» ، شرعية أي وجود يهودي غير إسرائيلي، ورفضوا كل الجوانب والأبعاد الجوهرية والثقافية للشتات اليهودي، وناضلوا بتعصب من أجل اللغة العبرية، وأنهوا عمليا اللغتين اللادينو (لغة يهود اسبانيا والبرتغال) واليديش، كلغتين حيتين ومنتشرتين. مع ذلك، وعلى الرغم من الكلمات اللاذعة والكتابة الأيديولوجية الحادة والدعوة إلى مركزية إسرائيل، فإن نشطاء الحركة الصهيونية، وكذلك زعماء الدولة أيضا، لم يدخروا جهدًا قط في استغلال أموال اليهود، وعلاقاتهم وروابطهم السياسية والدبلوماسية، وسمعة رجال المال وممثلي السينما، الحائزين على جوائز نوبل وسائر ذوي الصيت والسمعة من يهود العالم، بل ووضعوهم أحيانا أمام اختيارات قاسية جداً من الولاءات والولاءات المزدوجة (مثلا منظمة إيباك أو جوناتان بولارد).

في الوقت الحالي، حيث أضحى المشروع الإسرائيلي معزولاً أكثر فأكثر في العالم، تحول يهود الشتات إلى مصدر الدعم الأهم لإسرائيل. غير أن دعم يهود العالم هو دعم بـ «نصف قلب» فقط بسبب جملة من العوامل، ومنها الفجوة القيمية كما عبر عنها البروفسور بينارت، والتأثير المتراكم لسنوات رفض الشتات بطرق إسرائيلية شتى (قانون العودة، عدم اعتراف ممزوج بالازدراء بالتيارات اليهودية غير الأرثوذكسية ، وعدم الاعتراف بعمليات التهويد غير الأرثوذكسية، وتنمية صهيونية كارثية ترى في أي مأساة أو اعتداء في الخارج ذريعة لتشجيع الهجرة إلى إسرائيل، وغيرها من الطرق والوسائل)، وبشكل رئيسي أيضا بسبب التحفظ إزاء توسيع الجبهة الصهيونية ومحدداتها ونزاعاتها.

لمن تعود دولة إسرائيل؟!

يُعتبر الادعاء الإسرائيلي بأن إسرائيل هي «دولة الشعب اليهودي»، ادعاء إشكاليا للغاية. فهو يعني، من ناحية إسرائيلية داخلية، أن إسرائيل تعود أو تخص الـ stakeholders، وهم ليسوا من مواطنيها رسميًا. وفقا لهذا الفهم فإن لليهودي في الخارج، الذي لم يكن قط، ولن يكون، مقيما أو مواطنا في إسرائيل، مكانة خاصة لم تمنح ولن تمنح أبدا لجزء من مواطني إسرائيل الرسميين لأن أصولهم أو هويتهم غير يهودية. ومن ناحية الشعب اليهودي على اختلاف طوائفه في الشتات، يعني الأمر أن خطوط نزاع إسرائيل وصراعاتها تمر أيضا في كل مكان يوجد فيه يهودي أو جالية يهودية. وفي المحصلة فإن إسرائيل تفرض على يهود العالم حروبها وصراعاتها، دون أن تتيح لهم وسيلة سياسية أو دبلوماسية للتعبير عن موقفهم في القضايا التي يتحولون بسببها إلى جنود في حرب لا تخصهم، وفي ساحة المعركة المقترية من بيتهم، ودون أن تتوفر لهم إمكانية للدفاع عن أنفسهم. تنتج عن كل ذلك تصدعات آخذة في الازدياد والاتساع بين أجزاء من يهود العالم وبين إسرائيل. ولعلنا نشهد عملية تبادل أدوار دراماتيكية. فإذا كان المنفى قد شكّل على مر أجيال كثيرة مكان الخطر وحمام الدم لليهود، فيما كان تشييد المشروع السياسي اليهودي في الوطن البعيد حلمًا بالخلاص والإصلاح، فقد تحولت إسرائيل إلى مركز الخطر الأكبر على الشعب اليهودي كمجموعة، فيما أضحت الجاليات اليهودية الإسرائيلية في أرجاء العالم الديمقراطي، هي الفرصة لإنقاذ مستقبل الشعب اليهودي. وإذا ما وقعت، لا قدر الله، كارثة فإن التجمع اليهودي الأكبر في العالم، هو يهود إسرائيل.

«يُعتبر الادعاء الإسرائيلي بأن إسرائيل هي «دولة الشعب اليهودي»، ادعاء إشكاليا للغاية. فهو يعني، من ناحية إسرائيلية داخلية، أن إسرائيل تعود أو تخص الـ stakeholders، وهم ليسوا من مواطنيها رسميًا. وفقا لهذا الفهم فإن لليهودي في الخارج، الذي لم يكن قط، ولن يكون، مقيما أو مواطنا في إسرائيل، مكانة خاصة لم تمنح ولن تمنح أبدا لجزء من مواطني إسرائيل الرسميين لأن أصولهم أو هويتهم غير يهودية»

تبدل الوعي (١)

تعيش غالبية الشعب اليهودي حاليا في بقاع العالم الديمقراطي، إذ يقيم ٧٨٪ من اليهود في إسرائيل والولايات المتحدة الأميركية وتشكل أوروبا الغربية ثالث أكبر تجمع لليهود، فيما يعيش بضعة آلاف فقط في آسيا وافريقيا (ومن ضمن ذلك في البلدان والدول التي تقيم علاقات عداء مع إسرائيل أو مع الغرب، مثل إيران).

ليس هنالك خطر جماعي يهدد وجود الشعب اليهودي في أي من تجمعات اليهود الكبيرة في العالم الغربي. وتصطدم مظاهر اللاسامية بطود قيميّ معياري يأخذ شكل حكومات وأجهزة قضاء وتطبيق القانون ومؤسسات دينية ومنظمات المجتمع المدني. وللمرة الأولى منذ مئات وربما آلاف السنين، يقف الشعب اليهودي في مواجهة سؤال لا يتوفر له جواب جاهز عنه في صندوق أدوات ووسائل بقائه. والسؤال الوجودي للشعب اليهودي العصري الذي يعيش خارج إسرائيل ومجمل صراعاتها ونزاعاتها هو: «هل يمكن لليهودي، والشعب اليهودي، البقاء دون عدو خارجي؟!».

تزداد نسبة اليهود المتزوجين من غير يهود باستمرار، وهو ما يشكل إثباتا قاطعاً على أن «مشكلة اليهود» تتركز بمعظمها في إسرائيل، في حين نجد أن هذه المشكلة محلولة تقريباً في الغرب، بصورة عامة. فاليهودي وغير اليهودي يقيمان هناك علاقات مساواة واختلاط تامين، إذ يمكن لهم أن يكونوا أبناء عائلة واحدة في صلة قرابة من الدرجة الأولى، شركاء في الأعمال، أناس تربطهم علاقة مدرس وطالب، تاجر وزبون. وبذلك فإن الغرب الحاوي المستوعب والمتعدد الثقافات، يتحدى، بموافقة دستورية تامة وتحرر جوهري، السمتين الرئيسيتين للهوية اليهودية: التضاد والانعزالية. فما هي إذن اليهودية غير المحاطة بأسوار العداء، التي يكون الانتقال منها وإليها مسموحاً وممكنا وحراً؟!

تبدل الوعي (٢)

خلافا ليهود العالم الغربي المندمجين تماماً كأفراد في النسيج الدستوري، العالمي والمستوعب في الغرب، فإن إسرائيل «اليهودية» تعيش في مفارقة مثيرة. فقد قامت الدولة انطلاقا من الرغبة والرؤية الرامية إلى حل مشكلة اختلاف واغتراب الشعب اليهودي ووجوده غير الصحي أو السليم بين أمم وشعوب العالم، مرة وإلى الأبد. وقد كمنت في أساس الفكرة الفرضية القائلة بأن دولة قومية يهودية سوف تحول اليهود، في العالم السياسي المنتظم منذ قرون عديدة في دول قومية قديمة وجديدة، إلى شعب «ككل الشعوب».

من هذه الناحية فإن إسرائيل تمثل نصف نجاح ونصف فشل. فمن جهة، يدور الحديث حقاً على دولة تؤدي وظائفها على الصعيدين الداخلي والخارجي، بصورة معقولة جداً، على الرغم من الغياب التام للتقاليد السلطوية. غير أن وجود دولة اليهود لم يحل (حتى الآن) مشكلة الاختلاف الاستثنائي للشعب اليهودي. فمن نواح كثيرة نجد أن «الرزمة» التاريخية المتعلقة بعلاقات اليهود وغير اليهود، والتي حُلّت بصورة شبه تام في الغرب، ما زالت مكرسة بقوة في إسرائيل، ليس فقط بكون الدولة جزيرة معزولة – غيتو واسع وكبير– محاطة بأسوار وجدران، سكانها مُغتَرُّون بأنفسهم كشعب مختار تجاه الداخل، ويواجهون تهديدا دائما من الخارج، كمضطهدين حقيقيين ومتخيلين. غير أنه لم يجر قط نقاش إسرائيلي حقيقي حول استراتيجيا مختلفة للعلاقات مع المنطقة أو الإقليم، فالوعي الغيتوي التاريخي صار قبليا في الدولة القومية اليهودية الجديدة، فيما تتحدد علاقات هذه الدولة مع محيطها القريب باستمرار بواسطة علاقات العداء مع المحيط الإقليمي – الحيزي – غير اليهودي. حتى بات يبدو، كما كان عليه الحال إبان حقب عديدة في التاريخ اليهودي، أن غير اليهودي هو الذي يحدد ويعرف «من هو اليهودي». وعلى ما يبدو فإن جزءا من المصادر العميقة لعلاقات العداء الفاصلة بين إسرائيل والحيز الاقليمي، يكمن

«تزداد نسبة اليهود المتزوجين من غير يهود باستمرار، وهو ما يشكل إثباتا قاطعاً على أن «مشكلة اليهود» تتركز بمعظمها في إسرائيل، في حين نجد أن هذه المشكلة محلولة تقريباً في الغرب، بصورة عامة. فاليهودي وغير اليهودي يقيمان هناك علاقات مساواة واختلاط تامين، إذ يمكن لهم أن يكونوا أبناء عائلة واحدة في صلة قرابة من الدرجة الأولى، شركاء في الأعمال، أناس تربطهم علاقة مدرس وطالب، تاجر وزبون»

في اللاوعي المنفوي للإسرائيلي، وفي كي الوعي على امتداد آلاف السنوات في المنفى، وفي الارتياب البنيوي لدى اليهودي الجماعي بغير اليهودي الجماعي. وتلك هي خلاصة المفارقة الإسرائيلية: لقد كان المنفى في الأصل، كرؤية فكرية، البديل لوجود مستقل وسيادي في أرض إسرائيل، فيما قامت إسرائيل الحديثة كنقيض لرؤية المنفى، وأدى قيامها في حد ذاته إلى إطلاق عمليتين تعاكس وتناقض إحداهما الأخرى. في شتات الغرب تجري، بصفة قانونية وواقعية دون تهديد ظواهر مرضية، حياة منفوية مزدهرة للأفراد والجاليات، كما توجد عادات وتقاليد، بينما تستمر في إسرائيل الكثير من العادات والسلوكيات والأمزجة السلبية التي وسمت الوجود اليهودي في بلدان الشتات. ربما كان ذلك هو السبب الذي أدى إلى الانحسار الشديد في أهمية وقيمة رؤية «نفي المنفى» الصهيونية. وكانت سياسة «نفي المنفى» قد سادت منذ ظهور الصهيونية وكذلك في العقود الأولى لقيام إسرائيل، وكان لهذه السياسة تجليات أيديولوجية وسياسية ووظيفية، وقد وصلت الأمور حد أن رئيس الوزراء اسحق رابين وصف في مقابلة احتفالية بمناسبة «عيد الاستقلال» في العام ١٩٧٦، المهاجرين من إسرائيل إلى الشتات بأنهم «حثالة من الواهنين».

منذ ذلك الوقت تغيرت بعض الأمور، فهجرة إسرائيليين كثر إلى الخارج سعيا وراء رغد الحياة والعمل والدراسة ومجالات الاهتمام أو بدوافع خاصة، أضحت أمراً مألوفاً. ووفقا لمعطيات مكتب الاحصاء المركزي الإسرائيلي فإن ١٠٪ من الحاصلين على اللقب الجامعي الثالث (الدكتوراه) يعيشون خارج البلاد وفي مجال العلوم يتحول ذلك إلى سيل عارم: ٢١,٦٪ من الحاصلين على لقب الدكتوراه في الرياضيات يعيشون في الخارج، كذلك أيضا ١٧,٩٪ من الحاصلين على لقب جامعي في علوم الحاسوب، و ١٦,٦٪ من الحاصلين على لقب الدكتوراه في البيوكيمياء بالإضافة إلى ذلك فإن ١١,٧٪ من الحاصلين على اللقب الثالث في البيولوجيا، و ١٢,٧٪ من حملة اللقب الثالث في الكيمياء و ١٢,٩٪ من حملة شهادة الدكتوراه في هندسة الكهرباء. يعيشون أيضا في الخارج». كذلك هي الحال أيضا في مجالات أخرى مثل الفنون والدراسات.[١٤] معنى ذلك أن المهاجرين من إسرائيل إلى المنفى الجديد ليسوا بالضرورة من ضعفاء النفوس أو «حثالة واهنين» بل بالذات الأقوياء والناجحون. من هنا يطرح تلقائيا السؤال: هل إسرائيل هي المنفى الجديد؟!

انهيار المنظومات المسيطرة

يمكن رؤية انعكاس العلاقات بين إسرائيل ويهود الشتات من خلال مرآة المؤسسات اليهودية وفي مقدمها «الوكالة اليهودية لأرض إسرائيل» (أجل، هذا هو اسمها الرسمي حتى الآن). أقيمت «الوكالة اليهودية» في العام ١٩٢٩ كذراع تنفيذية للهستدروت الصهيونية العالمية، وقد عملت فعليا كمؤسسة سلطوية لـ «اليشوف اليهودي في أرض إسرائيل» (فلسطين – أرض إسرائيل) وكهيئة تربط بينه وبين الانتداب البريطاني. بعد إقامة الدولة أعيد توزيع الصلاحيات بين الوكالة اليهودية وبين حكومة إسرائيل، حيث أصبحت «الوكالة» حلقة الوصل المركزية بين المجتمع اليهودي – الإسرائيلي (حكومة إسرائيل والحركة الصهيونية) وبين الجاليات اليهودية في الشتات. كذلك كانت شريكا استراتيجيا مركزيا (بموجب قانون خاص – «قانون المكانة» والذي يخولها تحويل أموال تبرعات كبيرة وإحالة صلاحيات إلى مناطق ومجالات كان العمل فيها بصورة مباشرة أمراً حساسا للغاية بالنسبة للحكومة الإسرائيلية) في ثلاثة مجالات عمل في تجسيد الصهيونية: تشجيع الهجرة إلى إسرائيل واستيعاب المهاجرين، إقامة وتنمية وتطوير الاستيطان ومناطق الهامش، والتعليم في المدارس الداخلية لأبناء المهاجرين والطبقات المعوزة والفقيرة (فيما يتعلق بطبيعة الحال بالمكون اليهودي الإسرائيلي فقط).

«معنى ذلك أن المهاجرين من إسرائيل إلى المنفى الجديد ليسوا بالضرورة من ضعفاء النفوس أو «حثالة واهنين» بل بالذات الأقوياء والناجحون. من هنا يطرح تلقائيا السؤال: هل إسرائيل هي المنفى الجديد؟! »

بعد انتهاء موجة الهجرة الجماعية من الاتحاد السوفييتي سابقا وأثيوبيا، وتحول موضوع الاستيطان من موضوع إجماعي (الكيبوتسات والقرى التعاونية) إلى موضوع إسرائيلي مثير للانقسام والجدل (المستوطنات)، ونقل مسؤولية التعليم (هجرة الشبيبة) إلى الحكومة الإسرائيلية، انتهى عملياً دور الوكالة اليهودية. وعلى الرغم من المبالغ والتبرعات المالية الكبيرة التي ما زالت الوكالة تقوم بجمعها من يهود الشتات لصالح مواضيع مختلفة تخدم المجتمع الإسرائيلي، إلاّ أن التراجع في الأهداف والموارد بات جليا وملموساً.

ويمكن في هذا السياق ملاحظة اتجاهين بارزين بشكل خاص: أولا، على الرغم من أن قيمة تبرعات اليهود (من الولايات المتحدة) تضاعفت في العقد الممتد بين أواسط التسعينيات وسنوات الألفين، إلا أنه سُجل انخفاض حاد ومستمر في التبرع للمؤسسات القومية (اليهودية) التقليدية. فغالبية التبرعات تحول بشكل مباشر للجمعيات والمنظمات الإسرائيلية، أو بواسطة مئات جمعيات الصداقة. ثانيا يواصل سن المتبرعين الارتفاع، إذ إن الاهتمام بإسرائيل من جانب الشبان الذين تصل أعمارهم حتى منتصف الثلاثينات، آخذ في الانخفاض تدريجيا وباتجاه ثابت. ويستدل من بحث ريادي أجراه معهد «كوهن» في جامعة «برندايس» في بوسطن، بواسطة البروفسور ثيودور ساسون والدكتور أريك بلايش، أن ٧٠٪ من اليهود الأميركيين يشعرون أن لديهم «رابطة» أو «رابطة كبيرة» تجاه إسرائيل، وأن شعور الرابطة الأقوى تجاه إسرائيل هو لدى اليهود الذين تزيد أعمارهم عن ستين عاما، فيما كان المعطى الأكثر تدنيا على هذا الصعيد، في صفوف الذين تتراوح أعمارهم بين ٣٠ عاما و ٤٤ عاما، إذ صرح ٢٠٪ منهم فقط أن لديهم شعورا برابطة قوية تجاه إسرائيل![١٥] ويمكن إرجاع هذا الهبوط إلى الادعاء المذكور أيضا للبروفسور بينارت. كما ويمكن أن نُضيف إلى ذلك التراجع في الرواية التعبويّة، المُجنَّدة.

الشروخ الهوياتية في إسرائيل: أسباب بنيوية عميقة.

ويبدو لي أنه يجب أن نضيف إلى جملة هذه التفسيرات تفسيرين آخرين:

- أولا: أن يهود الغرب، وخاصة الشبان منهم، غير مهتمين، ولم يعودوا مقتنعين بالشعور الدائم بالخطر الوجودي الذي يشعر به إسرائيليون كثيرون، وعليه يشدد الزعماء السياسيون الحاليون في تحريضهم. فهم يدركون بالفطرة أن إسرائيل هي قوة ذات بأس شديد، ولم تعد تحتاج بعد إلى استنفارهم وتأهبهم الدائم تحسبا من خراب أو كارثة أخرى تتربص بها.
- ثانيا: وبناء على ذلك فإنهم يوجهون مشاعر العطف والطاقات والقدرات الخيرية والتطوعية لديهم نحو الأهداف والقيم التي تسم المجتمع الذين يعيشون ويعملون ويزدهرون بين ظهرانية. فتبرعات اليهود تحول لغرض إقامة مؤسسات داخل مجتمعهم العام (مستشفيات، مؤسسات ثقافية وفنية، معاهد أبحاث أكاديمية، منظمات خيرية وغيرها)، أو لأهداف إنسانية سامية عامة برسم «إصلاح العالم»، والتي يقوم بها كثيرون في العالم الأول من أجل المعوزين في العالم الثالث. وبين هذا وذاك فإن إسرائيل ببساطة لم تعد

«تلامس مسألة مستقبل العلاقات بين إسرائيل والشتات، مسألة الهوية، أو الهويات، لدى اليهودي كفرد، والشعب اليهودي بأكمله. وهذه الهوية المستقبلية ليست جلية تماما، فهي تثير أسئلة أكثر مما توفر إجابات.. هل مستقبل إسرائيل البعيد المدى، آمن ومضمون؟ هل سيبقى الغرب الحالي برّ الأمان الدستوري لليهود ولكل الذين يمثلون «آخرين» بالنسبة لهذا الغرب؟ »

على الخريطة، ذلك لأن الجاليات اليهودية الشابة أضحت عالمية أكثر، في حين أضحى أبناء جيلهم الإسرائيليون قوميين متعصبين وانعزاليين.

الشرخ: لماذا؟

فضلا عن كل التفسيرات السوسيولوجية والاقتصادية، ينبغي الرجوع في نهاية المطاف إلى الشرخ الأساس، فحين يطلب من اليهودي الأميركي المتوسط – المنتمي إلى المجتمع اليهودي الأكبر في العالم خارج حدود إسرائيل – وصف ركائز وأركان هويته، فإن الإجابة العامة ستكون بهذه الصيغة تقريبا: أنا مؤمن بالديمقراطية، أقدس الدستور، ملتزم بالمساواة بين جميع البشر، أؤيد بلا هوادة علمنة الحيزات العامة والفصل بين الدين والدولة، أنشد العدالة الاجتماعية والتوزيع العادل أكثر للموارد العامة».

تلك هي في الواقع، المنظومة السياسية المدنية والسوسيو اقتصادية التي مكنت يهود الغرب بصورة عامة، ويهود الولايات المتحدة بصورة خاصة، من التحول إلى جالية قوية وذات تأثير منقطع النظير. غير أن تلك المقولات ذاتها، حين تقال في إسرائيل، ولا سيما في أقسامها الأكثر محافظة (الآخذة في الاتساع) تفهم بأنها غير وطنية وغير صهيونية، وأقرب إلى الخيانة تقريبا. ويتراوح رد فعل معظم الإسرائيليين إزاء هذه الازدواجية بين الجهل واللامبالاة، فيما ينقسم رد يهود الغرب إلى ثلاثة أقسام. الأول – يبتعد وينفصل، والثاني – يتجند للنضال في سبيل الروح التقدمية لإسرائيل، عن طريق دعم وتأييد الفاعلية الاجتماعية ومنظمات من طراز «الصندوق الجديد لإسرائيل»، والثالث يتحول فعلا هو أيضا إلى محافظ ثلاثي الأبعاد، فيما يتعلق بالسياسة المحلية، وهويته اليهودية الفردية، وإسرائيل وسياستها.

وماذا بعد؟

تلامس مسألة مستقبل العلاقات بين إسرائيل والشتات، مسألة الهوية، أو الهويات، لدى اليهودي كفرد، والشعب اليهودي بأكمله. وهذه الهوية المستقبلية ليست جلية تماما، فهي تثير أسئلة أكثر مما توفر إجابات.. هل مستقبل إسرائيل البعيد المدى، آمن ومضمون؟ هل سيبقى الغرب الحالي برّ الأمان الدستوري لليهود ولكل الذين يمثلون «آخرين» بالنسبة لهذا الغرب؟ وإذا لم يكن الأمر كذلك، فما هي البدائل لهاتين الحالتين الوجوديتين؟

أضف إلى ذلك، ما هي الامكانات المتاحة (المستديمة) أمام إسرائيل لمواصلة البقاء في المنطقة التي تلفظ من داخلها في هذه الآونة العناصر التي تعتبر من وجهة نظر المتعصبين كـ «آخرين» (ويشهد على ذلك تناقص وانكماش الطوائف والمجموعات المسيحية)؟!

وينبغي الانتباه أيضا للسيرورات الداخلية الإسرائيلية الملموسة وفي مركزها التغيرات الديمغرافية والسياسية التي تتسم بتنامي وتعاظم قطاعات (مثل المتدنين المتزمتين– الحريديم) يعتبر إسهامها في الاقتصاد والأمن والمشاركة في سوق العمل، ضئيلا جداً. ومن النتائج الناجمة عن هذا التعاظم تزايد الشعور بالاحباط لدى القطاعات الأخرى التي تتحمل أعباء الضرائب والأمن والتجديد والتحصيل العلمي والتفوق الأكاديمي، وهذا نظرا لأنه تتوفر لهذه القطاعات المنتجة بالذات بدائل تشغيلية وآفاق مهنية في الخارج. وفي حال استمرار الشعور بالأزمة وتفكك التضامن الاجتماعي الداخلي، فإن هذه البدائل يمكن أن تتحول من امكانية محتملة إلى إغراء حقيقي.

ويبدو لي، انطلاقاً من فرضية أن إسرائيل ستواصل البقاء في صيغتها الحالية في العقود القليلة المقبلة على الأقل، أن خطوط الارتباط والشرخ بين إسرائيل والشتات سوف تتسم

بالتباطؤ. وسوف تشهد تنامي قوى يهودية عالمية قوية ومؤثرة داخل إسرائيل، تحتفظ بعلاقة أو رابطة قيمية وفنية مع القوى والعناصر المشابهة لها في أنحاء العالم اليهودي، والعالم بأكمله. ومن جهة أخرى، سيستمر تعاظم وتنامي الأيديولوجيات الهوياتية الانعزالية، سواء في إسرائيل، أو لدى الجاليات اليهودية في أرجاء العالم.

وسوف نرى في المستقبل المزيد من المؤسسات الوسيطة التي تقوم بتعزيز وتقوية العلاقة بين المتشابهين في كل الجانبين (الشتات وإسرائيل): والتي تسهم في تفعيل حركات إنسانية بين هنا وهناك (مثل التعليم المشترك، وزيارات التعارف والزواج). في الوقت ذاته سنشهد أيضا تناميا لقوى الطرد المركزية لدى أولئك الذين سيغادرون الحيزات اليهودية ويذوبون في بيئة الأغلبية غير اليهودية.

وثمة عامل آخر سيؤثر على طابع العلاقات وهو اتساع ظاهرة مجموعات الشتات لدى شعوب ومجتمعات آخرى. واذا كانت ظاهرة الشتات في الماضي غير البعيد تتسم وتميز الشعب اليهودي بشكل رئيسي، فإنه يمكن لنا اليوم أن نجد جاليات إرلندية في أميركا الشمالية. وهندية في بريطانيا، وأثيوبية في ايطاليا، وصينية في سائر أرجاء وبلدان العالم، وغيرها.

في هذا العصر الذي تكثر فيه الهويات، هناك من يحاولون المحافظة على الهوية النابعة من ماضيهم وبلدهم الأصلي دون التخلي عن حياتهم في المكان البعيد عن موطنهم الأصلي. وتعتبر المنفوية من السمات المميزة للمرحلة أو الحقبة الحالية، انطلاقا من روح العصر والتأثير المتبادل لليهود على أنماط العصر، وكذلل أيضا فإن تأثير روح العصر على اليهود يعتبر أمرا حتمياً.

ختاما، إن السؤال الأهم هو: ما هي مكانة ودور وهوية اليهودي ووجوده في حد ذاته – سواء أكان اليهودي المحلي أم المنفوي – في عالم عربي تبنى الكثير من سمات البروتوكول اليهودي؟!

وكما قال المؤرخ يوري سلزكين في كتابه «القرن اليهودي»: «إن العصر الحديث هو العصر اليهودي، وان القرن العشرين، هو – القرن اليهودي».

(ترجمه عن العبرية: سعيد عياش)

الهوامش

١ سفر العدد ٣٩

٢ سفر العدد ٩،٢٣

٣ اللاويين، الأصحاح ٢٨، ١٨

٤ من كتاب (مصحف) الصلوات اليومي لدى اليهود.

٥ المشناة، كتوبوت (ترتيبات فتاوى الكتاب)، صفحة ١١٠

٦ مجموعة دروس شمعوني، سفر صموئيل، أ، الفصل الثاني.

٧ الحاخام موشيه بن ميمون، شرائع الملوك والحروب، الجزء الخامس.

٨ التلمود البابلي، كتوبوت (ترتيبات فتاوى الكتاب)، صفحة ١١٠

٩ التلمود الأورشليمي، براخوت (البركات).

١٠ مقتبس من : «دونم هنا ودونم هناك» يهوشواع فريدمان.

١١ النشيد الوطني (الإسرائيلي) ألفّه: نفتالي هيرتس إيمبير.

١٢ رسالة غرشوم شالوم إلى فرانتس روزنتسفايغ بتاريخ ١٩١٩/١٢/٢٦ في اغرشوم شالوم. شؤون ذات فحوى– فصول في التراث والبعث. عام عوفيد، ١٩٧٥.

13 The Failure of American Jewish Establishment Jewish

http://www.nybooks.com/articles/2010/06/10/failure-americanestablishment/

١٤ عن حاملي ألقاب أكاديميّة عاشوا في الخارج ٣ سنوات وأكثر، وخطط إعادة حاملي الألقاب إلى إسرائيل

١٥ على موقع الانترنت التابع لمركز البحث في الكنيست: http://www.knesset.gov.il/mmm/data/pdf/m03375.pdf (شوهد في ٢٠١٦/٦/١)

15 Eric Fliech and Theodore Sasson. The New Philanthropy: American Jewish Giving to Israeli Organizations. Brandeis University, 2012.

http://www.brandeis.edu/cmjs/pdfs/TheNewPhilanthropy.pdf

المراجع

١ هرتسبرغ، آرثر. اليهود في أميركا: لقاء كثير التقلبات عمره ٤٠٠ سنة. ترجمة: آرييه حشافيا، إصدار: شوكن ١٩٩٤.

2 Silberman, Charles. A Certain People: American Jews and Their Lives Today. Silberman. Simon & Schuster; (1st edition) August 1985.

3 Pinto, Diana. Israel Has Moved. Harvard University Press, 2013.

4 The Making and Unmaking of a Zionist, A Personal and Political Journy. Pluto Press, 2012.

٥ شيفر، غبريئيل (غابي)، روث – طوليدانو هداس. من الذي يقود؟ حول علاقات إسرائيل والشتات اليهودي. تل ابيب: هكيبوتس هميئوحاد (الكيبوتس الموحد) ٢٠٠٦.

6 Don-Yehia Eliezer. Israel and Diaspora Jewry: Ideological and Political Perspectives, Ramat-Gan: Bar-Ilan University Press.1991

7 Tal, Rami, (ed.). Jewish People Policy Planning Institute Annual Assessment 2004-2005, Jerusalem: Jewish People Policy Planning Institute. 2005 Troen, Ilan (ed). Jewish Centers and Peripheries. New Brunswick: Transaction Publishers. 1999

٨ سلزكين، يوري. القرن اليهودي. تل أبيب: جامعة تل أبيب، ٢٠٠٩.